

آلات الاجسام الحية

(تابع ما قبله)

قد يمرض للمرء امور تلبه فيه اميالا تضاد مبادئه العادية التي يعبر عنها بشخصيته فلا يستطيع التغلب على هذه الاميال الا اذا قاومها بالمبادئ الادبية التي قادت بها وبما يجب عليه لنفسه وللغير . واذا فعل ذلك وقوي عليها زادت ارادته قوة وزادت الصفات التي تتألف منها شخصيته تضاماً وارتباطاً . ولكن اذا كانت الامور التي عرضت له فتبعت فيه تلك الاميال مفرطة في قوتها او كانت قواه العقلية ضعيفة في فعلها حاول عقله تجاهلها بدلاً من مقاومتها حتى اذا قويت على سلطة عقله اثرت فيه تأثيراً شديداً كأنه انفصل عن نفسه وآل ذلك فيه الى نوع من الضعف العقلي والعصي التي تعترى الصابين بالمستحريا . واذا اعتبرنا كثرة التراكم التي يتألف منها الانسان لم نجد له مثيلاً في شدة ما بين اجزاء جسمه من التضامن والانتظام ولا سيما اذا سمع على عمل يقتضي انشاء العزيمة وبذل الهمة . فانتظام تركيب الدماغ فسيولوجياً وسمو قواه الناطقة بسكولوجياً يمثلان من الجهة البيولوجية غاية الكمال الحيواني والصفات العقلية القائمة بالمجموع العصبي هي غاية الكمال في بناء الحيوان . واذا نظرنا اليها نظراً بيولوجياً وأسماء وجدنا انها تتقدم في كمالها ولا تقف عند الفرد بل تتناول الجماعات . ويظهر لدى ايمان النظر انها تبلغ في ارتقاها قنتين عاليتين الواحدة في الحشرات والثانية في ذوات الفقار والانسان على رأسها . ان عقل الحشرات من نوح الفرائز ولا شيء فيه من التمييز او القوة العاقلة . اما ذوات الفقار فالطبقة العليا منها فيها غريزة وقوة عاقلة تجمعان الافراد جماعات وتنظماها تنظيمياً لا مثيل له في غيرها من انواع الحيوان . والانسان ارقى هذه الانواع الاجتماعية وقد سار كذلك بقواه العاقلة . هناك اللغة والتقليد والفرائز التي تدعوه الى حفظ نوعه كما تدعوه الى حفظ نفسه . هناك النقل الذي تفعل به العواطف والاميال وتخضع له الانانية والتميرية فيمزوجهما معاً ويكون منها طبعاً عقلياً غريزياً منتظماً

الجماعة تتألف من افرادها كما يتألف الجسم من الخلايا التي يتركب منها. ومعالج الفرد ترتبط بمعالج اعموم كما ترتبط اجزاء الجسم المختلفة ببعضها ببعض بواسطة الجموع العصبية لتكون جسماً عقلاً منتظماً . وهذا الارتباط بين طوائف الناس ابتداءً منذ انمصور الطفالية ولا يزال آخذاً في النمو والانتظام. والبحث فيه بيولوجياً عقلياً في جوهره وعليه مدار علم النفس الاجتماعي (Social psychology). ومن هذا التقبل البحث الهام في فرع علم الاجتماع الذي رئيسه أكبر ثقة عندنا فيه . ومدار هذا الفرع على ما نطلبه الأعمال المتضامنة المنتظمة من كل احد كموضوع في المجتمع الانساني لكي تمام الاعمال الى انتظامها السابق بعد ما تولاها من الخلل يستتج ما تقدم ان في بعض مظاهر الحياة الحيوانية اعمالاً او وظائف نعرف كيفيتها على نوع ما ونستطيع تفسيرها . وبعض هذه الاعمال او الوظائف مثل اتقباض العضلات ودورة الدم والشهيق والزفير لادخال الهواء الى الرئتين واخراجها منها واتواع الحركات العصبية — كل ذلك نستدل مما عرفناه من امره حتى الآن على ان العلوم الطبيعية والكياوية ستمكننا من معرفة ما نجهله منه . وقد يحق لنا ان نقول اننا نستعرف كيف يعمل الجسم الحي اعماله كما نعرف كيف يدور المحرك الغازي او المحرك الكهربائي. وقد نفهم المبدأ الذي تتحرك به آلة من الآلات ولولم نستطع ان نعمل تلك الآلة كما اننا لا نستطيع ان نعمل الجواهر الفردة التي يتألف منها المحرك الغازي

لكننا اذا التفتنا الى خواص أخرى من خواص الجسم الحي مثل تكونه في شكل محدود وتكيف اعضائه حتى تصلح للوظائف التي تقوم بها افراداً وجمالاً وكون ذلك يبدأ والحيوان بيضة صغيرة فينشكز وهو جنين حتى يصلح للعمل المطلوب منه متى بلغ اشدّه. ومثل ان العمر الطبيعي الذي يجياه كل حي محدود — وجدنا ان كل ذلك وما يناسبه من تكوين اعضاء الجسم لم يزل سراً غامضاً معها بذلة العلم من البحث والاستقصاء. فان النتائج معروفة وهي الدرجات التي تمر فيها الاحياء من بداية تكونها الى نهايتها ولكن اسبابها غير معروفة . وكذلك لا نعرف كيف يرتبط العقل بالجسد فان المشابهة او الهائلة بين الافعال العقلية والعصبية لا تكشف لنا ماهية الارتباط بين الاثنين . وكل ما عرفناه من علم الاحياء انما يُثبت لنا شدة الارتباط بين الاثنين

الصعاب في نهم حالات الحيوانات المتنوعة كثيرة مختلفة فاذا اردنا ان نفهم كيف وُجد وندرسه درساً مدققاً معارفنا انقاصرة وجب ان نحمله الى اجزائه لا ان نكتفي بالنظر اليه كشيء كامل قائم برأسه . لكن هذا التحليل غير طيبمى ولا يمكن العمل به فان الحيوانات والنباتات ايضاً كائنات كل منها جسم كامل قائم برأسه وهذه النصفة يجب ان ننظر اليه لاننا لا نستطيع ان ندرك افعال عضو واحد من غير ان نقرنه بغيره من الاعضاء المرتبطة به . فيحق للمقل ان يحاول ادراك الكيفية التي يجري عليها الجسم الحي كجسم كامل من غير ان يهمل خاصية من خواصه

هذا المطلب من اسمى المطالب التي تقصر عنها المهم فالوصول اليه تريد قيمته بتاييدل في سبيله من الجهد وهو يتناول البحث عن المقل وتضمن البحث في الانسان من حيث كونه خاصاً لناموس بيولوجي يجمع الافراد المتفرقة في شوع كبير منتظم — مجموع جديد في تاريخ هذه الارض لان هذا الاتجاه البيولوجي اخذ في انشاء مجتمع يتوقف ارتباط اجزائه بعضها ببعض على مبرة امتاز بها الانسان وارتقت فيه بنوع خاص حتى صارت من اخص مقوماته وهي المقل الذي تدفعه الغرائز وبرشده الادراك . والانسان المتمرد على الطبيعة كما قال فيه السر راي لتكستر يستطيع ان يرى هذا المطلب السامي ويطبّق سيره عليه طالما ان عميانه يأول الى المحظاظ او يحول دون استمراره في الارتقاء . انتهى

لا نتذكر اننا لقينا من الصعوبة في ترجمة خطبة من الخطب التي تتل في مجمع تقدم العلوم البريطاني ما لقينا في ترجمة هذه الخطبة من اكتفائنا احيانا بالتلخيص لصعوبة الموضوع ولان عبارة الخطيب كثيرة التعقيد . وعسى ان يصل نوع الانسان الى الحالة التي قدّر وسوله اليها من التكافؤ والتضامن بين افرادهم وطوائفهم حتى يصير من هذا القبيل كالجسم الحي لكننا لا نرى في احوال الامم الحاضرة ما يدل على ان ذلك قريب الحصول ولا على انه يقع بعد قرن او قرنين . فان كان الانتظام والتكافؤ بين اعضاء جسم الحيوان انتضى ملايين من السنين فلا محب اذا مرّت مئات من القرون قبلما يتم الاتقان والتكافؤ بين اعضاء المجتمع الانساني